

الوافي في الوفيات

أهذا الذي أطريتِ نعتاً فلم أكن ... وعيشكِ أنساه لدى يومٍ أُقبرُ ؟ .
فقلت : نعم لا شكَّ غيَّرَ لونه ... سُرى الليلِ حتَّى نصَّه والتهجُّرُ .
لئن كان إيَّاه لقد حال بعدنا ... عن العهد والإنسانُ قد يتغيَّرُ .
رأتُ رجلاً أمَّـاً إذا الشمس عارضتُ ... فيضحى وأمَّـاً بالعشيِّ فيحضرُ .
أخا سفرٍ جوَّاب أرضٍ تقاذفتُ ... به فَلَـواتُ فهو أشعثُ أغبرُ .
قليلُ على طهر المطيَّـةِ طلَّـه ... سوى ما نفى عنه الرداءُ المحبِّـرُ .
وأعجبَها من عيشها طلَّـ غُرْفـةٍ ... وريَّـانُ ملتفٍّ الحقائقُ أخضرُ .
ووالِ كفاها كلَّ شـيءٍ يهمُّـها ... فليستُ لشيءٍ آخرَ الليلِ تسهرُ .
وليلة ذى دَوَّـرانٍ جشَّـمني السُّرى ... وقد يَجْشـمُ الهولَ المحبُّـ المغرَّـرُ .
فبتُّ رقيباً للرفاق على شفاءٍ ... أراقبُ منهم من يطوف وأنظرُ .
إليهم متى يستأخذ النومُ فيهمُ ... ولي مجلسُ لولا اللُّـبـانةُ أوعرُ .
وباتتُ قَـلـاًوصي بالعراء ورجلُها ... لطارق ليلٍ أو لمن جاء مُعـوـرُ .
وبتُّ أنـاجي النفسَ : أين خـبـأـوها ... وأنَّـى لما آتى من الأمرِ مصدرُ .
فدلَّـ عليها النفسَ ريَّـاً عرفتُـها ... به وهوى الحبِّـ الذي كان يُضمـرُ .
فلمَّـا فقدتُ الصوتَ منهم وأُطفئتُ ... مصابيحُ شُـبـبـتُ بالعِـشاءِ وأَنـوُـرُ .
وغاب قُـمـيـرُ كنتُ أرجو غيوبـه ... وروَّـحَ رعيانُ ونوَّـمَ سُمـرُ .
وخُفِّـضَ عَنـي الصوتُ أقبلتُ مـشـيـةً ال ... حُـبابِ ورُكني خيفةَ القومِ أـزـوـرُ .
فحيَّـيتُ إذْ فاجأتُها فتوهَّـلتُ ... وكادتُ بمرجوعِ التحيَّـةِ تَجـهـرُ .
فلمَّـا كشفتُ الستـرَ قالت : فضحتـني ... وأنتَ امرؤُ ميسورُ أمرُك أعسرُ .
أريتكَ إذْ هُـنـدَـا ألم تخفُ ... رقيباً وحولي من عدوِّـكَ حُـضـرُ .
فواي ما أدري أتعجيل حاجةٍ ... سرتُ بك أم قد نام من كنتَ تحذرُ .
فقلتُ لها : بل قاذني الشوق والهوى ... إليك وما نفسُ من الناس تشعرُ .
فقلتُ وقد لانتُ وأُفـرِخَ روعُها ... كـلـاكَ بحفظِ ربِّـك المتكبِّـرُ .
فأنتَ أبا الخطَّـابِ غيرَ مُنـازـعٍ ... عليَّ أميرُ ما مكنتَ مؤمَّـرُ .
فيا لك من ليلٍ تقاصرَ دونه ... وما كان ليلى قبل ذلك يـَقـصرُ .
ويا لك من ملهَى هناك ومجلسٍ ... لنا لم يكدِّـره علينا مُكـدِّـرُ .
يمُجُّ ذكيَّـ المسكِّـ منها مُفـلـجُ ... نقيَّـ الثنايا ذو غروبٍ مؤشِّـرُ .

يرفُّ إِذَا تَفَتَّرَ عَنْهُ كَأَنَّهُ ... حصى بِرَدِّ أَوْ أَقْحَوَانٍ مَنُورٍ .
وترنو بعينيها إِلَيَّ كما رنا ... إِلَى طَبِيعَةٍ وَسَطِ الْخَمِيلَةِ جُودَرٍ .
فَلَمَّا تَقَضَّى اللَّيْلُ إِلَّا أَقْلَاهُ ... وَكَادَتْ هَوَادِي نَجْمِهِ تَتَغَوَّرُ .
أشارتُ بِأَنَّ الْحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمْ ... هَبُوبٌ وَلَكِنْ مَوْعِدٌ لَكَ عَزَّوَرٍ .
فما راعني إِلَّا مَنَادٍ : تَحَمَّلُوا ... وَقَدْ لَاحَ مَعْرُوفٌ مِنَ الصَّبْحِ أَشْقَرُ .
فَلَمَّا رَأَتْ مِنْ قَدْ تَنَوَّرَ مِنْهُمْ ... وَأَيْقَاطَهُمْ قَالَتْ : أَشِرُّ كَيْفَ تَأْمُرُ .
فقلتُ : أُنَادِيهِمْ فِيمَا أَفَوَتْهُمْ ... وَإِمَّا يَنَالُ السِّيفُ ثَأْرًا فَيَثَارُ .
فَقَالَتْ : أَتَحْقِيقُ لِمَا قَالَ كَاشِحٌ ... عَلَيْنَا وَتَصْدِيقُ لِمَا كَانَ يُوْثِرُ .
فإنَّ كَانَ لَا بَدَّ مِنْهُ فَغَيْرِهِ ... مِنَ الْأَمْرِ أَدْنَى لِلْخَفَاءِ وَأَسْتَرُ .
أَقْصَّ عَلَى أَخْتِيَّ بَدْءَ حَدِيثِنَا ... وَمَا لِي مِنْ أَنْ يَعْلَمَا مَتَأَخَّرُ .
لَعَلَّهُمَا أَنْ يَبْغِيَا لَكَ مَخْرَجًا ... وَأَنْ يَرْحَبَا سَرِبًا بِمَا كُنْتُ أَحْصَرُ